دار الحديث العراقية

تفسيرا

سورة النازعات

الشيخ الدكتور
ماهر بن ياسين الفحل
غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

موعدُنا اليوم مع تفسير سورة ((وَالنَّازِعَاتِ)) بهذا سمّاها البخاريُّ في صحيحه ، وكذا في بعض المصاحف .

وتسمى اختصاراً بـ((النازعات)) كما هو في كثير من المصاحف والكتب ، وتسمى بـ((الساهرة)) و((سورة الطامة)) على ما جاء في هذه السورة من لفظين بارزين .

وهي سورةٌ مكيةٌ نزلتْ بعد سورة ((عم يتسائلون)) عددُ آياتها : ستٌ وأربعون آية ، وعددُ كلماتها : مائةٌ وتسعٌ وسبعونَ كلمةً .
وعددُ حروفِها : سبعمائةٍ وثلاثةٌ وخمسون حرفاً .

ويرى بعض المفسرين أنَّ في السورة توكيداً ربانياً بتحقق يوم البعث والحساب وما سوف يستولي على المجرمين فيه من خوفٍ وندمٍ ، مع التذكير برسالة موسى إلى فرعون ، وموقفِ فرعون وما في ذلك من عبرة ، وتدليلاً على قدرة الله على البعث ، والتنكيلِ بالكفار بما كان من مصير فرعون ، وبمشاهد الكون وعظمة الله وبديع صُنعه فيه ، وتنديداً بالكفار لشكِهم بالآخرة وبياناً : إنذارياً وتبشيرياً بمصير كلٍ منَ المتقين والطاغين فيها .
ورأى أنَّ نظمَ السورة وترابطَ آياتها يُسوغان القولَ أنَّها نزلتْ دفعةً واحدةً .

((والنازعات)) أي : الملائكة التي تنزع أرواح الكفَّار ((غرقاً)) أي : إغراقاً كما يُغرق النَّازع في القوس يعني : المبالغةَ في النَّزع ، والمقصرونَ في حقِ الله مَثَلٌ فِي حُبِّ الْحَيَاةِ فَفِي الْقَسَمِ بِمَلَائِكَةِ قَبْضِ الْأَرْوَاحِ عِظَةٌ لَهُمْ وَعِبْرَةٌ ، وهذا مناسبٌ لغرض السورة في إثبات البعث بعد الموت ، ومعلوم أنَّ الموتَ أولُ منازلِ الآخرة فاتسقَ حُسنُ الابتداءِ مع بديع الانتهاء .

((والناشطات نشطاً)) قسمٌ بالملائكة في وظيفتها ، يعني : الملائكة تقبض نفس المؤمن برفقٍ ورحمةٍ ولينٍ كما يُنشط العقالُ من يد البعير ، كما أُثر عنْ جماعة منَ السلف أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَسُلُّونَ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ سَلًّا رَفِيقًا قال الرازي : ((وَإِنَّمَا خَصَصْنَا هَذَا بِالْمُؤْمِنِ ، وَالْأَوَّلَ بِالْكَافِرِ لِمَا بَيْنَ النَّزْعِ والنشط من الفرق ، فالنزعُ جَذْبٌ بِشِدَّةٍ ، وَالنَّشْطُ جَذْبٌ بِرِفْقٍ وَلِينٍ فَالْمَلَائِكَةُ تَنْشِطُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ)) .

وسكرات الموت أيها الأخوة تحصلُ لكل المخلوقات ، فكلُ المخلوقات تجدُ سكرات الموت ويشهد لهذا المعنى عموم قوله تعالى : ((كل نفس ذائقة الموت)) ، وقوله صلى الله عليه وسلم ((إن للموت سكرات))، لكنَّ المخلوقاتِ تختلفُ في درجةِ إحساسِها بالسكرات بين شدةٍ ولينٍ ورحمةٍ وعذاب .

فالعبدُ المؤمنُ تخرجُ روحُهُ بسهولةٍ ويسرٍ ، ودليلُ ذلك ما ورد في حديث البراء بن عازب : أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قال عن وفاة المؤمن : ((ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرجُ تسيلُ كما تَسيلُ القطرة من فِيّ السقاء ، فيأخذها)) .

أما الفاجر فإنَّ روحَهُ تخرج بشدة وصعوبة يتعذب بها ، لقوله صلى الله عليه وسلم في حديثه عن وفاة غير المؤمن : ((ثم يجيء مَلكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال : فَتَفرق في جسده ، فينتزعها كما يُنتزع السفودُ الكثيرُ الشعبِ من الصوف المبلول ، فَتُقطِعَ معها العروق والعصب)) .

وتشتد السكراتُ على بعض الصالحين ؛ لتكفير ذنوبهم ، ولرفع درجاتهم ، كما حصل للرسول صلى الله عليه وسلم حيث عانى من شدة سكرات الموت ، قال ابن حجر : ((وفي الحديث ((لا إله إلا الله إنَّ للموت سكرات)) : إنَّ شدة الموت لا تدل على نقصٍ في المرتبة ، بل هي للمؤمنِ إما زيادةٌ في حسناته ، وإما تكفيرٌ لسيئاته)) .

وقد بوب ابن ماجه في سننه باباً بعنوان : (باب ما جاء في المؤمن يؤجر في النَزْع)، وساق فيه قوله صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن يموت بعرق الجبين)) . كما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال : ((الشهيد لا يجد ألم القتل إلا كما يجد أحدكم ألم مسِّ القرصة)) .

((والسابحات سبحاً)) فهو قسمٌ بسائر طَوَائِفِ الْمَلَائِكَة تَسبحُ في السماء نزولاً وصعوداً لتطبيق وظائفها منْ أمر الله وحكمته ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِلْفَرَسِ الْجَوَادِ : إِنَّهُ السَّابِحُ ؛ فالملائكةُ تنزلُ من السماء وتَصعدُ ذاهبةً آيبةً بأوامر الله وأحكامه ، كلُّ صنِّفٍ منهم يعمل لعظمةِ الملك وقوةِ السلطان ، فالسبحُ يدلُ على السرعة .

((فَالسَّابِقاتِ سَبْقا)) عطفٌ على قسمٍ بالملائكة ، فهو قسمٌ إذن بالملائكة يَسبقونَ بأرواحِ المؤمنين إلى مستقرها بِمبادرةٍ لتذوقَ النعيم ، ولا تتأخر عمَّا أعدَ اللهُ لها ، وبأرواح الكفار إلى النار .

والملائكة قد سبقوا بني آدم بالإيمان والطاعة ((لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)) ، والملائكة سبقوا بالوحي إلى الأنبياء .

((فَالْمُدَبِّراتِ أَمْراً)) هُمُ الْمَلَائِكَةُ : يُدَبِّرُونَ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْأَرْضِ بإذن الله ، وَهُمُ ((الْمُقَسِّمَاتُ)) كما قال تعالى : ((فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا)) والملائكةُ منهم منْ هو موكلٌ بالوحيِّ ، ومنهم من هو موكلٌ بالقطر ومنهم من هو موكلٌ بالرياح ، ومنهم من هو موكلٌ بحفظ بني آدم ، ومنهم من هو موكلٌ بالأخذ والعقاب .

أخي الكريم ، وأنت مخلوقٌ على الأرض وتُدبرُ الأمور من حولك تأمل {فالمدبرات أَمْراً} أي الملائكة : تدبّر شئون الكون بأمره تعالى : في الرياح ، والأمطار ، والأرزاق ، والأعمّار ، وغير ذلك من شئون الدنيا ، وتأمل قوله تعالى : ((يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم

توقنون)) فتأمل الحكمة والرحمة ؛ لتشكرَ وتذكرَ ، وتأملْ عظمةَ الخالقِ في ملكوته وزود الإيمان في صدرك .

والمذكورُ صفاتٌ للملائكة ، وأفعالٌ للملائكة فكان القسمُ بالملائكة وأفعالِها والمقسمُ عليه محذوف ، وهو «لتبعثنَّ أيُها الناسُ فالبعثُ واقعٌ لا محالة» وإنَّما قلنا ذلك ؛ لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة ، والمسلمُ لما يتدبرُ أقسامَ القرآنِ يَستشعرُ شرفَ المقسمِ به ، فاللهُ إذا أقسمَ بشيءٍ دلَ على شأنِ المقسمِ به ، واللهُ يقسمُ بما شاءَ من مخلوقات ، فالمخلوقيةُ تدلُ على عظمةِ الخالق جل جلاله ، أمَّا نحنُ فلا نقسم إلا بالله أو أسمائه أو صفاته ؛ لأنَّ القسم عبادةٌ ؛ والعبادةُ لا تصرف إلا لله .

ثم قال تعالى : ((يوم ترجف الراجفة)) الراجفةُ هي النفخةُ الأولى ، وهي الظرفُ الذي يقع فيه النفخُ ، قال تعالى : ((يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً)) فالراجفةُ الصوتُ المجلجلُ كما أنَّ الصاخة الصوتُ الذي يصخُ الأذانَ ، فتكون النفخةُ الأولى بصوتها المرتفع فتتزلزلُ الأرضُ وتموتُ الكائنات ، وتنتهي الحياة الدنيا .

قال تعالى : ((تتبعها الرادفة)) ، وَالرَّادفةُ رَجْفَةٌ أُخْرَى تَتْبَعُ الْأُولَى فَتَضْطَرِبُ الْأَرْضُ لِإِحْيَاءِ الْمَوْتَى كَمَا اضْطَرَبَتْ فِي الْأُولَى لِمَوْتِ الْأَحْيَاءِ عَلَى مَا ذَكَرَهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّمَر ، فالرادفةُ فيها إحياءُ الناس بعد موتهم وإعادةُ الأرواح إلى الأجساد وقيامُ الناس لرب العالمين ، وَسُمِّيَتْ رَادِفَةً ؛ لِأَنَّهَا رَدِفَتِ النَّفْخَةَ الْأُولَى .

ثم هناك الخوف الأكبر لمن لم يخفِ الله في الدنيا ، فهناك سيخاف ؛ إذ لا ينفعه الخوف ، قال تعالى ((قُلُوب يَوْمئِذٍ وَاجِفَة)) أي : خَائِفَةٌ قَلِقَةٌ مضطربةٌ مذعورةٌ منزعجةٌ من هول المطلع تكاد القلوب تخرج من الجُنُوب لخوف علّام الغيوب . وقد وصفَ اللهُ خوفَ هذه القلوب بقوله : ((وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)) .

قال تعالى : ((أَبْصارُها خاشِعَةٌ)) قال الرازي : ((لِأَنَّ الْمَعْلُومَ مِنْ حَالِ الْمُضْطَرِبِ الْخَائِفِ أَنْ يَكُونَ نَظَرُهُ نَظَرَ خَاشِعٍ ذَلِيلٍ خَاضِعٍ يَتَرَقَّبُ مَا يَنْزِلُ بِهِ مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيم)) .

((أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ)) أَيْ : أَبْصَارُ أَصْحَابِهَا ، أَيْ : ذَلِيلَةٌ حَقِيرَةٌ ؛ مِمَّا عَايَنَتْ مِنَ الْأَهْوَالِ .

أي : أبصار هذه القلوب بمعنى أبصار أصحابها ، إذ لا فرق بين الإنسانِ وقلبِه يومئذ ، والخاشعةُ : الذليلةُ ، وإنَّما أوقع الذلَّ على الأبصار ؛ لأنَّها هى المرآة التي تتجلى على صفحتها أحوال الإنسان ، وما يقع فى القلب من هم وحزن وفرح .

ومن كان خاشعاً في الدنيا لربه أنجاه خشوعه بين يدي الله ، ومن غفل في الدنيا يُذلُ في الآخرة .

ففي الدنيا كان يقول العتاة والطغاة كما قال تعالى : ((يقولون أإنا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ)) أَيْ : أَنُرَدُّ بَعْد الْمَوْت إِلَى الْحَيَاة ، وَالْحَافِرَةُ اِسْمٌ لِأَوَّلِ الْأَمْر ، وَمِنْهُ : رَجَعَ فُلَانٌ فِي حَافِرَته إِذَا رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ . والأرض تسمى الحافرة ؛ لأنَّها تحفرُ بأقدامِ الخلق في مشيهم .

«أَإِذا كُنَّا عِظاماً نَخِرَةً؟» أي : أنبعث إذا صرنا كذلك ؟

((قالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَة)) وَالْمَعْنَى : أَنَّهَا إِنْ صَحَّتْ فَنَحْنُ إِذًا خَاسِرُونَ لِتَكْذِيبِنَا ، وَهَذَا مِنْهُمُ اسْتِهْزَاءٌ ، ومراد كلامهم كَرَّةٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى الْخُسْرَانِ ، كَقَوْلِ القائل : تِجَارَةٌ رَابِحَةٌ ، أَوْ : خَاسِرٌ أَصْحَابُهَا .

وتأمل بلاغة القرآن فجاءتِ العبارةُ (قالوا) ولم تكن (يقولون) لأنَّ قولهم هذا ليس من الحجج التي تتكرر ، ولكنَّها نتيجةُ حجتِهم عند النزاع .

وقد تعلق قوله تعالى : ((فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ)) بمحذوفٍ ، تقديرُهُ : لا تستصعبوها ، فإنَّما هي زجرةٌ واحدةٌ ، أي : لا تحسبوا تلك الكرة صعبةً على الله عز وجل ، بل هي سهلةٌ هينةٌ في قدرته ، ما هي إلا صيحةً واحدةً ، يريد النفخة الثانية فَإِذا هُمْ أحياءٌ على وجه الأرض بعد ما كانوا أمواتاً في جوفها . وفي الدنيا خَلقُ بني آدم يمر بمراحل لأجل العظة والاعتبار ، وبيان مظهر من رحمة العلي المتعال وهذا ظاهر باسم الرحم الذي يلف الجنين برحمات من الله ، أمَّا شأنُ يومِ القيامة فهو أسرعُ خلقاً وإعادةً ؛ لأجل أنَّ وقت العمل ترحل .

((فإذا هم بالساهرة)) يعني : وجه الأرض بعد ما كانوا في باطنها ؛ وتلكم الْأَرْضُ إِنَّمَا تُسَمَّى سَاهِرَةً ؛ لِأَنَّ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ فيها يطير النوم عن الْإِنْسَانِ ، فَتِلْكَ الْأَرْضُ الَّتِي يَجْتَمِعُ الْكُفَّارُ فِيهَا فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ يَكُونُونَ فِيهَا فِي أَشَدِّ الْخَوْفِ ، فَسُمِّيَتْ تِلْكَ الْأَرْضُ سَاهِرَةً لِهَذَا السَّبَبِ ، ولأنَّ تضاريسها مختلفة ، ولا معلم فيها لأحد .

و (الساهرة) : الْأَرْضُ الْمُسْتَوِيَةُ الْبَيْضَاءُ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا يُخْتَارُ مِثْلُهَا لِاجْتِمَاعِ الْجُمُوعِ وَوَضْعِ الْمَغَانِمِ ، وَأُرِيدَ بِهَا أَرْضٌ يَجْعَلُهَا اللَّهُ لِجَمْعِ النَّاسِ لِلْحَشْرِ .

وَالْإِتْيَانُ بِـ (إِذَا) الْفُجَائِيَّةِ لِلدِّلَالَةِ عَلَى سُرْعَةِ حُضُورِهِمْ بِهَذَا الْمَكَانِ عَقِبَ الْبَعْثِ . وذلك اليومُ يومٌ شديدٌ يشتدُ فيه غضبُ الجبار ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ : أَشُدُّ مَا يَكُونُ الرَّبُّ غَضَبًا عَلَى خَلْقِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ .

ثم يأتي بعد هذا ذكر قصة موسى بأسلوب تشويق وترغيب لسماع القصة قال تعالى : ((هل أتاك حديث موسى)) أي : هل جاءك يا محمد خبرُ موسى الكليم ؟ وصبرُهُ في مواجهة فرعون وما لقي من شدائد ؟ إنَّ فيها أسوةً فاصبر وتعز به .

أما وجْهُ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْقِصَّةِ وَبَيْنَ مَا قَبْلَهَا هو أَنَّهُ تَعَالَى حَكَى عَنْ الْكُفَّارِ إِصْرَارَهُمْ عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ حَتَّى انْتَهَوْا فِي ذَلِكَ الْإِنْكَارِ إِلَى حَدِّ الِاسْتِهْزَاءِ فِي قَوْلِهِمْ : ((تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خاسِرَةٌ)) وَكَانَ ذَلِكَ يَشُقُّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ قِصَّةَ مُوسَى عَلَيْهِ ، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسَّلَامُ ، وَبَيَّنَ الله سبحانه وتعالى أَنَّهُ تَحَمَّلَ الْمَشَقَّةَ الْكَثِيرَةَ فِي دَعْوَةِ فِرْعَوْنَ ويَكُونَ ذَلِكَ تسليةً لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه كان يعايش أهل الكفر في مكة فهي دعوة لاقتباس العبرة والدروس ، ثم أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ أَقْوَى مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَأَشَدَّ شَوْكَةً ، فَلَمَّا تَمَرَّدَ عَلَى مُوسَى أَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ فِي تَمَرُّدِهِمْ عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم إِنْ أَصَرُّوا أَخَذَهُمُ اللَّهُ وَجَعَلَهُمْ نَكَالًا ، ففيه تلويحٌ وتلميحٌ للمشركين بمكة أنَّه سيصيبهم مثل ما أصاب الذين من قبلهم إنْ لم يعتبروا ، ومطلع سورة الفجر يشهد لهذا المعنى .

وقوله تعالى : ((هل أتاك)) معناها : قد أتاك .

قال تعالى : ((إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى)) .

وَالْوَادِي : الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ بَيْنَ الْجِبَالِ ، و(طوى) اسم الوادي ، والْوَادِي الْمُقَدَّسُ الْمُبَارَكُ الْمُطَهَّر بطور سيناء ، فشرف الوادي لأجل الكليم ، وتقدس بسبب الوحي .

والوادي المقدس ، هو واد فى أسفل جبل سيناء .

((اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)) أي : اذهب إليه وعظِه وادعُه إلى التوحيد ، فإنَّه قدْ تجاوز الحد وتكبر على الله وكفر به ، وتجبّر على بنى إسرائيل وبغى وتجبر وعصى ، واستعبدهم حتى بلغ من أمره أنْ ذبح أبناءهم واستحيا نساءهم .

الطُّغْيَانُ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ ، فمَعْنَاهُ : أَنَّهُ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ ثم هو طغى على بني إسرائيل فجحد حق الله وَطَغَى عَلَى الْخَلْقِ بِأَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ وَاسْتَعْبَدَهُمْ ، وَكَمَا أَنَّ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ وسعادةَ المرء بإخلاصِ العبادةِ للخالق والإحسان لعبيده ، فَكَذَا تمام الطُّغْيَانِ الْجَمْعُ بَيْنَ جحود حق الْخَالِقِ وظلم الْخَلْقِ ؛ ففرعون عصى الله واستعبد الناس .

ومع طغيان فرعون فإنَّ اللهَ أمرَّ موسى وعلّم موسى الأدب في الدعوة فقال له : ((فقل له هل لك إلى أن تزكى)) فطلبَ اللهُ منْ موسى أنْ يُليّن له القول ؛ ليكون ذلك أنجع فى الدعوة وليكون الأمر نبراساً في الدعوة في كل زمان ومكان .

فبدأ موسى بمخاطبة فرعون بالاستفهام الذي معناه العَرض كما يقول الرجل لضيفه : ((هل لك أن تنزل عندنا)) وهو أسلوبٌ من أساليب التلطف والتأدب ، وأردفه الكلامَ الرفيقَ الرقيقَ ؛ ليستدعيه بالتلطف ، ويستنزله بالمداراة من عتوه كما في قوله تعالى {فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً} ثم قال الله تعالى : ((فقل هل لك إلى أن تزكى)) أترغب في أن تتطهَّر وتتزود بالإيمان ، والتزكي التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل ، وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ جَامِعَةٌ لِكُلِّ مَا يَدْعُوهُ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْمُرَادَ : هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَفْعَلَ مَا تَصِيرُ بِهِ زَاكِيًا عَنْ كُلِّ مَا لَا يَنْبَغِي ، وَذَلِكَ بِجَمْعِ كَلِّ مَا يَتَّصِلُ بِالتَّوْحِيدِ وَالشَّرَائِعِ ، ومن التلطف بهذا القول الإشارة أنَّ الأمر يخص فرعون فيكون الأمر في مصلحة فرعون ، وفيه زكاة قلبِه وطهارتِه بالمعاني الفاضلة ، وَهَذَا الْمَنْهَجُ هُوَ تَحْقِيقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ((ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)) .

((وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ)) أي : خالقك وموجدك الذي رباك بالنعم ، وأُرشدُك إلى معرفة الله أنبهك عليه فتعرفه فهو الذي خلقك ورزقك وسواك وعدلك . ((فَتَخْشى)) لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة. والعلم الحقيقي ثمرته الخشية ، ولا خير في علم لا يورث الخشية ، قال الله تعالى : ((إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ)) أي : العلماء به ، وذكرَ الخشيةَ ؛ لأنَّها مِلاكُ الأمر ، فإنَّ منْ خشي الله : أتى منه كل خير ، ومن أمن سطوة الجبار : اجترأ على الشرّ.

((وأهديك إلى ربك)) : أي أرشدك إلى معرفة ربك الحق فتخشاه وتطيعه فتنجو من عذابه.

قال تعالى ((فَأَرَاهُ الآية الكبرى)) في الكلام محذوفٌ ، أي : فذهب فأرى موسى فرعونَ المعجزةَ ، وهي العصا أو اليد التي فيها العبرة .

((فكذب وعصى)) فكذب فرعون دعوة موسى وعصى أمره وكذّب بقوله وعصى بفعله .

كَذَّبَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، وَعَصَى بِأَنْ أَظْهَرَ التَّمَرُّدَ وَالتَّجَبُّرَ ، وفيه الإشارة إلى سرعة التكذيب ، وفيه الإشارة إلى مبلغ الكبر في نفس فرعون مع أنَّه جاءه بالآيات الدالة على صدقه ، ومعلوم أنَّ الطغيانَ يُفضي بصاحبه إلى رد الحق والاستكبار عنه .

كثيرٌ من الناس أَدْبَرَ يَسْعَى فِي مُقَابَلَةِ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، وسلفُهُ في ذلك فرعونُ الذي أخذه الله نكال الآخرة والأولى .

((ثم أدبر يسعى)) ثم هو أعرض عن الهداية وسعى في الغواية وأمعن في الفساد ، والتعبير بـ(يسعى) دليلٌ أنَّه بذل وسعه في التخطيط والكيد للقضاء على دعوة موسى .

((فحشر فنادى)) فجمع الناسَ وأعلن منادياً بباطله .

((فقال أنا ربكم الأعلى)) أي : فقال فرعون لقومه : أنا ربكم الذي رباكم بالعطايا ، وأنا عال فوقكم لا رب فوقي كذباً وزوراً ، وقال ذلك ليعبدوه من دون الله ، وكلمة فرعون أشنع كلمة

((فأخذه الله نكال الآخرة والأولى)) أَيْ : نكَّل الله به في الآخرة بالعذاب في النَّار ، وفي الدُّنيا بالغرق ونَكالَ مصدر مؤكد ، كـ(وعدِ الله) ، و(صبغةِ الله) ، كأنَّه قيل : نَكّل اللهُ به نكالَ الآخرة والأولى ، والنَّكال بمعنى التنكيل ، كالسلام بمعنى التسليم . يعنى : الإغراق في الدنيا والإحراق في الآخرة ، وقدّم نكال الآخرة على نكال الأولى ، لأنَّ عذابَ الآخرة أشدُ وأكبرُ .

((إن في ذلك لعبرة لمن يخشى)) إنَّ في عقاب الله لفرعون وإهلاكِهِ عظةً عظيمةً لمن اتقى ربه وخاف مولاه ، فهذا مصيرُ كلِّ طاغية ونهايةِ كلِّ جبار . وفي هذا إشارةٌ إلى أهمية الاعتبار بالحوادث ، وأنَّ يعتبر المرءُ بحال الأمم السابقة ، فإنَّ التأريخ يشرح الحاضر والمستقبل ، والتأريخُ يُعيدُ نفسَهُ وهو نمطُ الماضي ، والمستقبلُ نمطُ الحاضر ، وإذا تمكنَ المرءُ من معرفة سنن الله بالأمم أستطاع أنْ يوظف التأريخ بإصلاح الحاضر وبناء المستقبل .

((أأنتم)) أيُّها المنكرون للبعث ((أشدُّ خلقاً أم السماء بناها)) فالخطابُ لمنكري البعث ، يعنى : أَأَنْتُمْ أصعب خَلْقاً وإنشاءً (أَمِ السَّماءُ) ثم بين كيف خلقها فقال : (بَناها) ثم بين البناء فقال : (رَفَعَ سَمْكَها) أى : جعل مقدار ذهابها في سمت العلو مديداً رفيعاً .

وقد ذكر العلماء (أَنَّ امْتِدَادَ الشَّيْءِ إِذَا أُخِذَ مِنْ أَعْلَاهُ إِلَى أَسْفَلِهِ سُمِّيَ عُمْقًا ، وَإِذَا أُخِذَ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ سُمِّيَ سَمْكًا، فَالْمُرَادُ بِرَفْعِ سَمْكِهَا شِدَّةُ عُلُوِّهَا) فالسمكُ : السقفُ فاللهُ رفعَ سقفَ السماءِ وسواها ، أي : جعلها مستويةً ليس فيها شقوقٌ كما قال تعالى : ((ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)) .

وَقَدْ جَاءَ الْجَوَابُ مُصَرِّحًا بِأَنَّ السَّمَاءَ أَشَدُّ خَلْقًا مِنْهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ((لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)) .

((رفع سمكها)) سقفها ((فسوَّاها)) فعدّلها بلا شقوقٍ ولا فطورٍ ولا تفاوت

((وأغطش)) أَظلم ((ليلها وأخرج ضحاها)) أظهرَ نورَها بالشَّمس وأبرزَ ضوءَ شمسِها، يدلُ عليه قوله تعالى : ((وَالشَّمْسِ وَضُحاها)) يريد وضوئِها.

(وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها) أي : وجعل ليلها مظلماً بمغيب الشمس ، وأبرز نهارها، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنَّه أشرفُ أوقاتِهِ وأطيبِها، وفيه من انتعاش الأرواح ما ليس فى سائرها ، وهو صَدرُ عملِ بني الإنسان لطلبِ المعاش ؛ لذا شرعت فيه صلاة الضحى ، فربنا غاير بين الوقتين ولم يجعله سرمداً ، فالضحى نور طاريء بسبب الشمش ، والظلمة سبَبُها غيابُ الشمس ، أي : عدم وجود مصدر للنور .

فَقَوْلُهُ: ((بَنَاهَا)) فَسَّرَهُ بِقَوْلِهِ: ((رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا)) أَيْ : جَعَلَهَا عَالِيَةَ الْبِنَاءِ ، بَعِيدَةَ الْفَنَاءِ ، مُسْتَوِيَةَ الْأَرْجَاءِ ، مُكَلَّلَةً بِالْكَوَاكِبِ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ كما قال ابن كثير .

وَ (أَشَدُّ) : اسْمُ تَفْضِيلٍ ، وَالْمُفَضَّلُ عَلَيْهِ مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ أَمِ السَّماءُ وَمَعْنَى (أَشَدُّ أَصْعَبُ

وَبِنَاءُ السَّمَاءِ : خَلْقُهَا ، اسْتُعِيرَ لَهُ فِعْلُ الْبِنَاءِ لِمُشَابَهَتِهَا الْبُيُوتَ فِي الِارْتِفَاعِ .

وكما أخرج الله سبحانه الماء والمرعى من الأرض ، أرسى فيها الجبال لتمسكها وتحفظ توازنها

((والأرض بعد ذلك دحاها)) بسطها وكانت مخلوقةً غير مدحوَّةٍ فدحاها وفرشها للكائنات ومهّدها لعيش الناس وبسطها مع كرويتها لتقوم على ظهرها الحياة ، فكانت مهاداً للأحياء والأموات ، وكلما شاهدتَ الناسَ يمشون على الأرض ويركبونَ عليها ، ويبنون ويزرعون تذكر هذه الآيات ، وتأملْ كيف أنَّ الله جعل قشرة الأرض صالحةً للسكنى صالحةً للزراعة مُودَعاً فيها خيراتٌ مكنونةٌ منْ مياهٍ ومعادنَ وطاقة ، وتكرر في القرآن كثيراً ((جنات تجري من تحتها الأنهار)) فالجنَّاتُ نعمةُ الزرعِ والرزق والمنظر البهي والأنهار نعمةُ الماء .

((أخرج منها ماءها ومرعاها)) أخرج الماء من الأرض في عيون وآبار وأنهار من الصخور ، ومن تحت الجبال وفي الصحاري ، وأنبت فيها المرعى الأخضر متاعاً وغذاءً للحيوان ، فالمرعى ما ترعاه النَّعم من الشَّجر والعشب ، وقد دلّ الله سبحانه بذكر الماء والمرعى على عامة ما يرتفق به ويتمتع مما يخرج من الأرض حتى الملح ، لأنَّه من الماء ((مَتاعاً لَكُمْ)) أي : فعل ذلك تمتيعاً لكم ((وَلِأَنْعامِكُمْ)) لأنَّ منفعةَ ذلك التمهيد واصلةٌ إليهم وإلى أنعامهم ، وما وصل للأنعام فهو واصل لبني الإنسان .

ونحوُ الآية قولُهُ : «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ» .

تحدث القرآن عن الماء في ٦٣ موضعاً منها قوله تعالى: ((وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ)) ، وقوله تعالى : ((وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ)) .

اللهُ جعلَ حياة جميع الكائنات الحية على سطح الأرض مرتبطةً بوجود الماء. قال الله تعالى: ((وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)) فإذا تأملنا في الإنسان الذي كرمه الله نجد أنَّ متوسطَ نسبة وجود الماء في جسم الإنسان نحو ٦٥٪ من وزنه ، وفي عالم النبات تتفاوت هذه النسب فتصل من ٧٠٪ إلى ٩٠٪ من وزنه ماءً ، والماءُ أحد مكونات البوتوبلازم (المادة الحية في الخلية) ، وعليه فالماء يحدد بقاء النبات نفسُه ووجودُه.

فالماء الذي أنزله الله من السماء هو أغلى وأثمن مادة على وجه الأرض ، له من الصفات العجيبة والخواص الفريدة ما جعله يتبوأ مكانة رفيعة ، ومن هذه الخصائص ارتفاع درجة غليانه التي هي ١٠٠ درجة مئوية ؛ فلو كانت درجة غليانه أقل من الصفر مثلاً لجفت البحار والأنهار واختفت الحياة ، ومن خواصه زيادةُ حجمه عند تجمده عكس معظم المواد، ولذا نجد أنَّ قطعة الثلج

تطفو فوق السطح فتكون كغطاء عازل للطبقات السفلى فلا تتجمد، وتحتفظ المياه أدناه بدرجة حرارة كافية لحياة الكائنات البحرية ، وهي أغلب كائنات الحياة ، فلا عجب إذا سمعنا من يقول : «إن الحياة ظاهرة مائية» ومن خواصه أيضاً التي ينفرد بها عن غيره قدرتُهُ كونه سائل مذيب لكثير من المواد ؛ فهو المذيب الأعظم .

إنَّ الماء أيُّها الأخوة هو من المواد التي توجد في الحياة بصورها الثلاث : الصلبة والسائلة والغازية ينتقل بينها في دورة ثابتة تعرف بالدورة الهيدرولوجية ، وللرياح دورٌ أساسٌ في هذه الدورة كما قال تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ)) .

إنَّ الماء جعله الله عز وجل وسيلةً للثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ؛ ففي الجنة يقول تعالى: ((مَثَلُ الجَنَّةِ الَتِي وُعِدَ المتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ)) وفي المقابل في النار : ((كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)) .

وفي الدنيا عن الثواب يقول تعالى : ((وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً)) (، أما العقاب فعن قوم نوح قال تعالى : ((فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)) .

إن المسطحات المائية على كوكب الأرض من محيطات وبحيرات وغيرها والتي تغطي أكثر من ثلثي مساحة الأرض هي التي ميزت كوكب الأرض عن باقي كواكب المجموعة الشمسية بلونه الأزرق المميز وبوجود الحياة عليه. إن التدبر في الآيات القرآنية التي ذكر فيها لفظ الماء وما جاء ذكره عنها في السنة النبوية مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد، ثم يتوضأ منه» وهو يشير إلى قضية التلوث التي أصبحت مصدر رعب في بلدنا وانتشار مرض الكوليرا. إن التدبر والتأمل فيما ذكر يزيد المؤمن إيماناً . ولذا ذكر الماء في سورة درسنا لبيان شأن هذه النعمة

((والجبال أرساها)) أي : ثبّتَ الجبالَ أوتاداً في الأرض فلا تضطرب ؛ ليستقر العيش لأهلها بأمانٍ واستقرارٍ ، واستقرارُ الجبالِ من دحو الأرض وضبطها وإحْكامِها ، أي : إنَّ الله جعل

الجبال للأرض أوتاداً تُثبتها ، وكلُّ جبلٍ مغروسٍ متجذرٌ في باطن الأرض ليحفظَ توازنَها فلا تميلُ ولا تضطربُ ، والجبال من مصادر الرزق حيث تشتمل على المعادن وغيرها مما ينتفع منه الناس .

((مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ)) أي : أَنَّا إِنَّمَا خَلَقْنَا هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مُتْعَةً وَمَنْفَعَةً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُم .

قال ابن كثير : ((وَقَوْلُهُ (مَتَاعًا لَكُمْ وَلأنْعَامِكُمْ) أَيْ : دَحَا الْأَرْضَ فَأَنْبَعَ عُيُونَهَا ، وَأَظْهَرَ مَكْنُونَهَا ، وَأَجْرَى أَنْهَارَهَا ، وَأَنْبَتَ زُرُوعَهَا وَأَشْجَارَهَا وَثِمَارَهَا، وَثَبَّتَ جِبَالَهَا، لِتَسْتَقِرَّ بِأَهْلِهَا وَيَقَرُّ قَرَارُهَا، كُلُّ ذَلِكَ مَتَاعًا لِخَلْقِهِ وَلِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَنْعَامِ الَّتِي يَأْكُلُونَهَا وَيَرْكَبُونَهَا مُدَّةَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهَا فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْأَمَدُ، وَيَنْقَضِيَ الْأَجَلُ)) .

((فإذا جاءت الطامة الكبرى)) يعني : صيحة القيامة ، والطَّامَّةُ الداهية التي تطم وتغطي على الدواهي ، أي : تعلو وتغلب ؛ فَالطَّامَّةُ اسْمٌ لِكُلِّ دَاهِيَةٍ عَظِيمَةٍ يُنْسَى مَا قَبْلَهَا في جنبها.

((يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ)) مَا سَعى يَعْنِي إِذَا رَأَى أَعْمَالَهُ مُدَوَّنَةً فِي كِتَابِهِ تَذَكَّرَهَا ، وَكَانَ قَدْ نَسِيَهَا ، كَقَوْلِهِ : ((أَحْصاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ)) .

قال تعالى : ((يوم يتذكر الإنسان ما سعى)) التذكر يكون بعد نسيان ، وهذا التذكر يوم القيامة

((مَا سَعَى)) فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرّ ، فيتذكرُ المؤمنُ بالصالحات التي تَسرُ بينَ يدي الله ، ويتذكرُ المجرمُ المفرطُ الجرائمُ والجرائرُ .

((وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لمن يرى)) أي : أبرزها فظهرتْ لمن يراها لا يخفيها شيء ، والناسُ بعد ذلك مؤمنٌ وكافرٌ ، والطريقان : طريقُ جنةٍ وطريقُ نارٍ ، وَالْجَحِيمُ : النَارُ العَظِيمَةُ فِي حُفْرَةٍ عَمِيقَةٍ .

((فأما من طغى)) أي : تجاوز الحد الذي حدده الله بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

((وَآثَرَ الْحَيَاة الدُّنْيَا)) بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَات ، فاستحبَ الحياةَ الدنيا على الآخرة ، وقدّم شهواتِهِ ونزواته على مرضاة الله كما قال تعالى : ((بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى)) وهذا هو سرُّ الطغيان تقديمُ الدنيا التي من خزف يفنى على الآخرة التي هي من ذهب يبقى .

((فإنَّ الجحيم هي المأوى)) أي : مردُهُ ومُنتهاه إلى النار فبئس المصير الذي صار إليه وبئس المهاد الذي مهّده لنفسه .

قال تعالى : ((وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى)) وهنا تفصيل الذي نجوا لبيان الطريق الذي سلكوه ففازوا ونجوا ؛ ليعتبر المرء وينجو بنفسه ، فالمرء يتعبد الله بالخوف والرجاء فيتقرب إلى ربه خوفاً من النار ورغبةً بالجنَّة ، ويتقرب إلى الله حُباً وتعظيماً وتألها وافتقاراً ، ومَقامُ رَبِّهِ هو القيامة ، وإنَّما المرادُ مقامُهُ بينَ يدي ربه ، فأضافَ المقامَ إلى الله عز وجل من حيث بين يديه ، وفي ذلك تفخيمٌ للمقامِ وتعظيمٌ لهوله وموقعه من النفوس ، المعنى خافه عند المعصية فانتهى عنها ، وإذا كان المرءُ يشتهي المعصية فيتركها خوفاً من ربه ، فأولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى .

((وَنَهَى النَّفْسَ)) أي : نهى النفس الأمارة بالسوء ((عَنِ الْهَوَى)) المردي ، وهو اتباع الشهوات ، وما سُمي الهوى بالهوى إلا لأنَّه يوهي بصاحبه إلى نار جهنم ، فمن نهاها عن الشهوات المحرمة والوساوس المحرمة وزجرها عنه ، وضبطها بالصبر والتوطين على إيثار الخير فله الفوز والظفر .

وفي قوله تعالى : ((وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)) – تنبيهٌ خطيرٌ على أنَّ لأهواء النفس الأمارة بالسوء سلطاناً قاهراً وجلباً إلى السوء ضاراً ، وأنَّه إذا لم يُقمِ الإنسانُ على نفسه واعظاً من القرآن يعظّها وناهياً من السنة ينهاها ، وزاجراً من الكلم الطيب يزجرها عن اتباع الهوي الذي يهوي بصاحبه إلى النار انقادَ لهذه النفس التي تعبُّ الشهوات وتورد المهلكات ، نسأل الله السلامة من كل الآفات .

((وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)) أي : ردها عن شهواتها وأغراضها الفاسدة .

أَيْ : خَافَ الْقِيَامَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَخَافَ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ ، وَنَهَى نَفْسَهُ عَنْ هَوَاهَا ، وزجرها عن مشتهاها الممنوع ورَدها إِلَى طَاعَةِ مَوْلَاهَا {فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} أَيْ : مُنْقَلَبُهُ وَمَصِيرُهُ وَمَرْجِعُهُ إِلَى الْجَنَّةِ الْفَيْحَاءِ. كما قال ابن كثير

الإنسانُ أيها الأخوة يَكسبُ أعمالَهُ باختياره وسعيه والمقصرُ معاقبٌ عليها وفاقاً لعمِله ، والمتقي مجزيٌّ بعطاءٍ وفضلٍ منَ الله .

بعد أنْ أخبر الله عن مصير مَنْ خافه واتقاه ومصيرِ مَنْ اتبعَ الشهواتِ المحرمة ، جاءَ الكلامُ عنِ الساعة التي يكونُ فيها الحسابُ والجزاءُ والقصاصُ .

((يسألونك عن الساعة)) يعني : القيامة ((أيَّان مرساها)) متى وقوعها وثبوتها ؟ أَيَّانَ مُنْتَهَاهَا وَمُسْتَقَرُّهَا، كَمَا أَنَّ مَرْسَى السَّفِينَةِ مُسْتَقَرُّهَا حَيْثُ تَنْتَهِي إِلَيْهِ .

الحياةُ الدنيا، أشبُهُ بسفينةٍ أقلعتْ بالناس ، تَسيرُ بهم مدةَ الزمن الذي قَدرهُ اللهُ ثم ترسو بهم لِينالَ كلُّ إنسانٍ جزاءَهُ في عملِهِ في رحلة اختباره ، وجاءَ في القرآن ذكرُ العبرةِ مراراً لِيعبرَ الإنسانُ مواطنَ الزلل إلى برِ النجاة . وَالْعِبْرَةُ : الْحَالَةُ الَّتِي يَنْتَقِلُ الذِّهْنُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ عَاقِبَتِهَا وعاقبة أَمْثَالِهَا ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْعَبْرِ ، وَهُوَ الِانْتِقَالُ مِنْ ضَفَّةِ وَادٍ أَوْ نَهْرٍ إِلَى ضَفَّتِهِ الْأُخْرَى. وَالْمُرَادُ بِالْعِبْرَةِ هُنَا الْمَوْعِظَةُ .

تفكر يا أخي بهذه الآية العظيمة قَالَ تَعَالَى : ((يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)) أَيْ : لَيْسَ عِلْمُهَا إِلَيْكَ وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ أبداً ، بَلْ : مَرَدُّها ومَرجعُها إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ حقيقتها ووَقْتَهَا عَلَى التَّعْيِينِ ، ((ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ)) ، وَقَالَ هَاهُنَا : ((إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)) وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ جبريلُ رسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ وَقْتِ السَّاعَةِ قَالَ : ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)) .

وَقَوْلُهُ : ((إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا)) أَيْ : إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتُنْذِرَ النَّاسَ وَتُحَذِّرَهُمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ ، فَمَنْ خَشِيَ اللَّهَ وَخَافَ مَقَامَهُ وَوَعِيدَهُ ، متبعاً إياك أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ ، وَالْخَيْبَةُ وَالْخَسَارُ عَلَى مَنْ كَذَّبَكَ وَخَالَفَكَ.

وتأمل العظمة لله العلي القهار : ((إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا)) أي منتهى علمها ، أي : أنَّ الذي عنده علمُ متى تكون الساعة هو الله ، وهو الذي يقدرها متى تكون .

((إنما أنت منذر مَنْ يخشاها)) إنَّما ينفع إنذارك من يخشاها ، أي : من يخشى الساعة فيؤمنُ ويستعدُ لها بالعمل الصالح وعدمِ التفريط والإقلاعِ عن الآفات فهذا هو الذي لا يتخذ الكلام عن الساعة لهواً .

((كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا)) في قبورهم ((إلاَّ عَشِيَّةً أو ضحاها)) أَيْ : نهارها استقصروا مدَّة لبثهم في القبور لما عاينوا من الهول ، والعشية تطلق على ما بين زوال الشمس إلى غروبها ،

والضحى من طلوع الشمس إلى وقت الزوال ، أي : كأنَّ مدة مكثهم في الدنيا كوقت العشي أو الضحى في قصره وسرعة تقضيه .وَقَالَ قَتَادَةُ: وَقْتُ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِ الْقَوْمِ حِينَ عَايَنُوا الْآخِرَةَ.